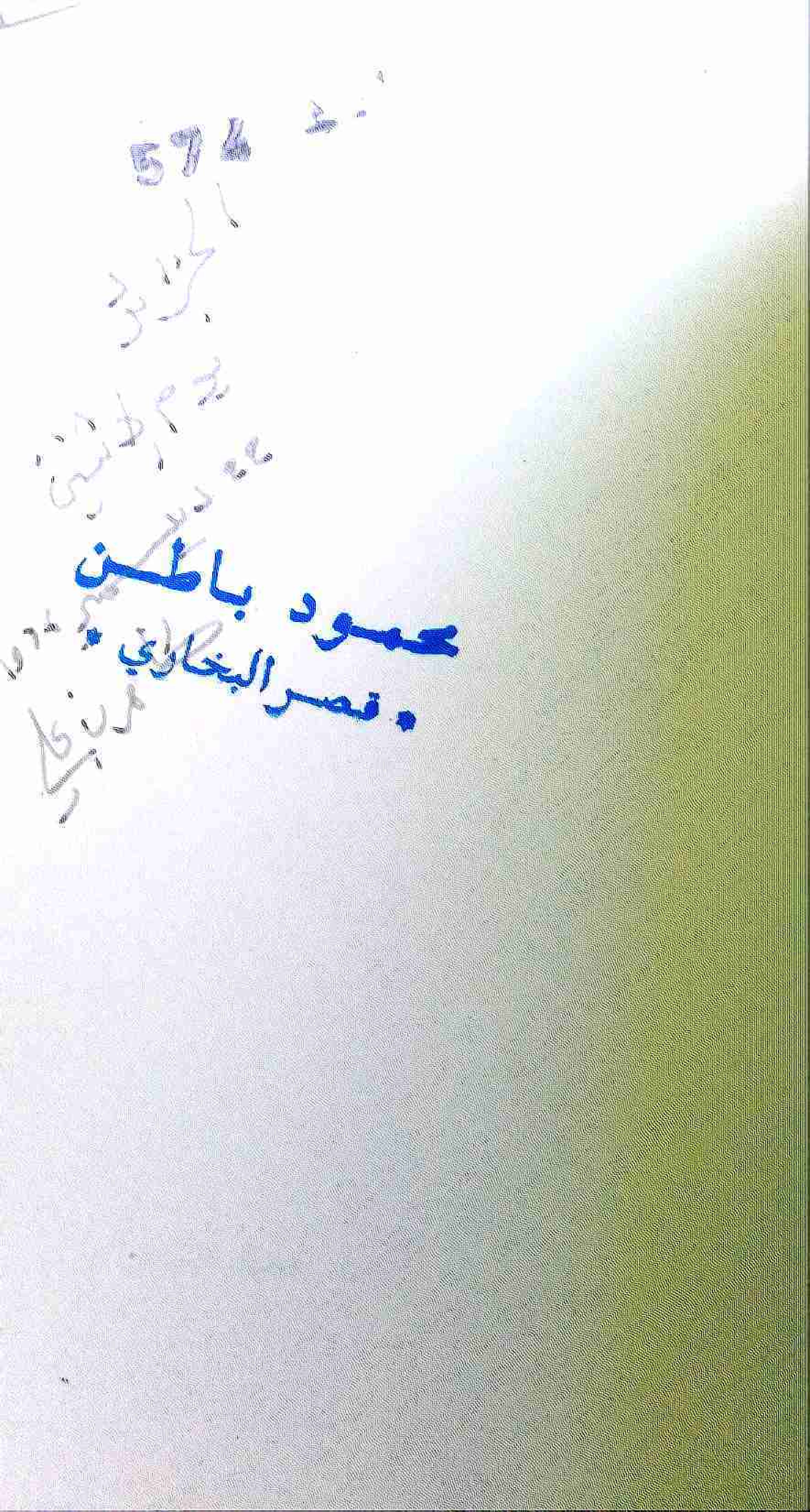
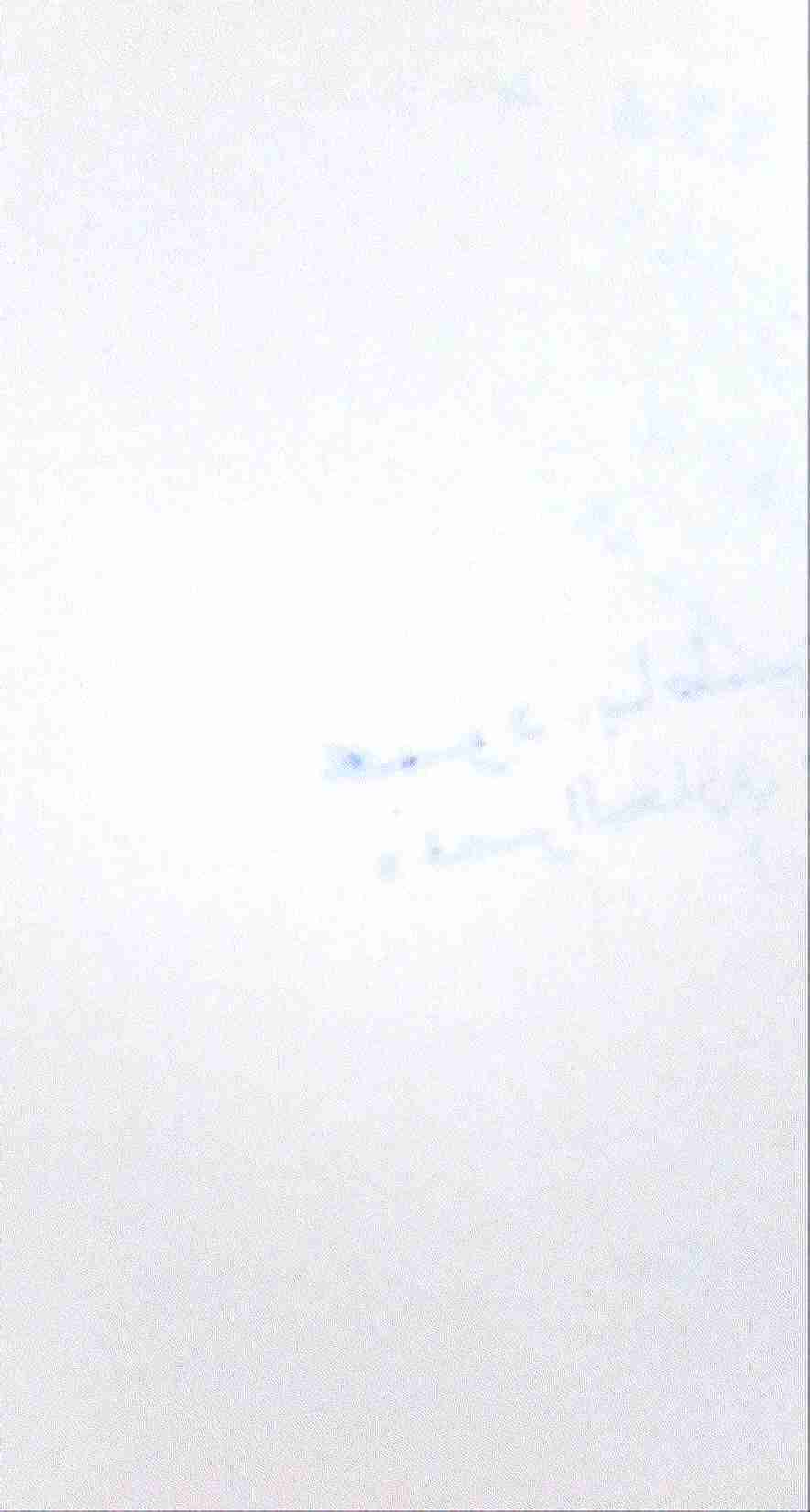

أحمد الصافي النجفي
حصاد
السجن
مكتبة المعارف


محمود باطن
• نصر البخاري •



حصاد السجن

١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م
بيروت

أحمد الصافي النجفي

حصاد السجن

وهو ثمار سجن الناظم مدة ثلاثة وأربعين يوماً في سجن الأمن العام الافرنسي ببيروت بأمر السلطات الانكليزية سنة ١٩٤١ عند دخولها لبنان .

مكتبة المعارف
بيروت

آثار المؤلف

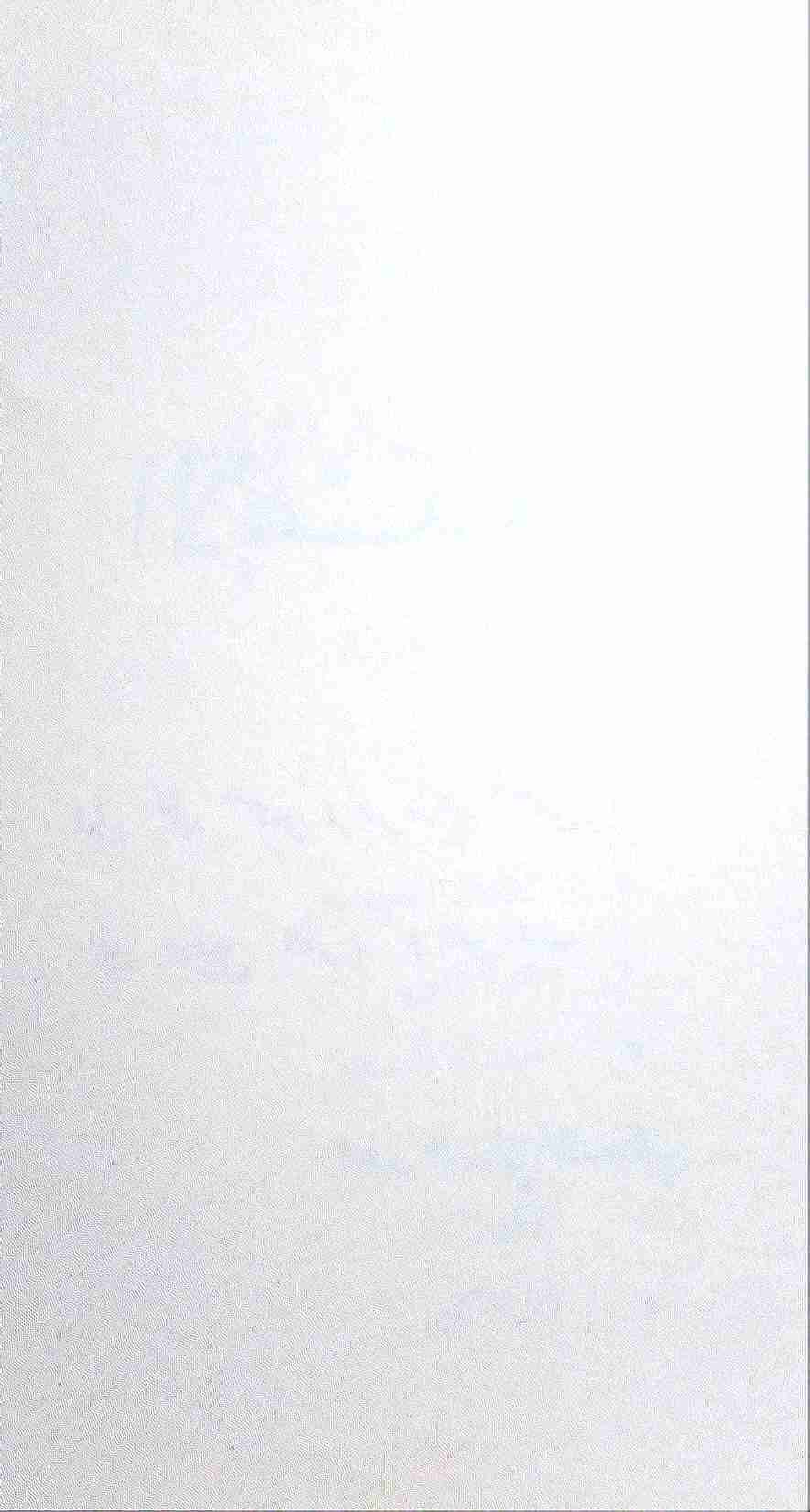
ديوان « الامواج
» اشعة ملونة
» الاغوار
» التيار
» الحان اللهيب
» هواجس
» حصاد السجن
» شرر
» اللفحات
» الشلال

الإهداء

الى كل سجين ومرشح للسجن

في سبيل الحرية والواجب

احمد الصافي النجفي



مقدّمة

بقلم الاديب الكبير الاستاذ رئيف خوري

وهي دراسة تحليلية عن شعر السجون عند
شعراء العرب ثم عن ديوان «حصادالسجن»

●

لئن اسجنْ فما الأقفاص إلا
لليث الغاب ، أو للعندليب
ألا يا بلبلاً سجنوك ظلماً
فنحت لفرقة الغصن الرطيب
ويا ليث الشرى سجنوك مثلي
لدُن خافوا وثوبك أو وثوبي

الصافي

فإذا لم أحترق أنا

ولم تحترق انت

ولم يحترق هو

فكيف يخرج من الظلمات نور ؟

ناظم حكمت

« سجين اثني عشر عاماً »

« حصاد السجن »

عهدنا بالحصاد يكون حَبًّا فاذا هو هنا أزاهير وثمار من صور وأفكار وعواطف نبتت ونضجت بين جدران اربعة موحشة ، في هضبات وصروح من نفس الشاعر ، فضمها ودفع بها الينا مرتبة على هذه الأوزان والقوافي وفيها من غذاء الذوق وقوة الروح مايكون في الحَب من طعام الأبدان .

وليس بغريب ان يكون السجن وجدرانه حقلاً « يحصد » فيه الشاعر مثل هذا الحصاد المعنوي المبارك . فقديماً كانت السجون مهداً لولادة الروائع تتمخض بها النفوس الشاعرة . وأي مجال احق من هذا المجال بأن نستعرض فيه

ولو مسرعين بعض تلك الروائـع التي كان من حظها قديمـاً في تاريخ الأدب العربي ان تبصر النور في دياجير السجون ...

عدي بن زيد العبادي

ولعل اول شاعر عربي في قافلة السجناء ممن ذكرهم تاريخ الأدب : عديّ بن زيد . كان تميمياً نصرانياً من اهل الحيرة ، ولذلك عرف بالعبادي[1] توفي في الجاهلية حوالي السنة ٥٩٠م، قبل الهجرة بنحو خمسة وثلاثين عاماً . وكان من جِـلة العلماء ورجال السياسة والفروسية في عصره، أتقن الفارسية مع العربية وبرع في ركوب الخيـل والرمي بالنشّـاب واللعب بالصوالجة ، وتولى المناصب الرفيعة في بـلاط الأكاسرة في المدائن ثم في بلاط المناذرة في

---

١ - العباديون : لفظ أطلق على نصارى الحيرة .

الحيرة . فكتب بالعربية في ديوان كسرى انو شروان ثم في ديوان ابنه هرمز ، حتى استوزره الملك النعمان وزوجه ابنته هنداً ، ولكن الوشايات والدسائس ، أوغرت عليه صدر الملك فاعتقله وحبسه في « الصنّين »[1] ثم قتله قتلة

---

١ – من الاماكن القريبة الى الحيرة ، ولا يزال تلا مرتفعاً قائماً الى الآن بالقرب من الحيرة ويسمى الصنين.

وهذا الصنين هو الذي يقول فيه الشاعر الجاهلي وهو يتمنى نزهة مترفة من العهد القديم حيث يقول :

ليت شعري متى تخب بي النا

قة بين السدير فالصنين

محقباً ركوة وخبز رقاق

وبقولا وقطعة من نون

وحشية . وقد نظم عديٌ شعره في هذه المدة بين دخوله السجن ومصرعه. وشعره كله شكوى موجعة يرفعها الى النعمان ، وتذكير له بما خدمه فأخلص في خدمته ، وتأكيد لبراءته مما نسب اليه . ويجيــد عديٌ في هذه الأغراض كلها نقول من قصيدة بائيّة :

ألا مَن مبلغٌ النعمان عني
وقد تُهوى النصيحة بالمغيب

أحظّي كان مَشكلة وقيداً
وغُلاً ، والبيان لدى الطبيب

أتاك بأنني قد طــال حبسي
ولم تسأم بمسجون حريب

وبيتي مقفر الارجـاء ، فيه
اراملُ قد هلكن من النحيب

فان أظلِمْ فقد عاقبتموني
وإن أُظلَمْ فذلك من نصيبي !

ويقول واصفاً زيارة امه له في السجن ومحرضاً اهله على إنقاذه:

ولقد ساءني زيارةُ ذي قربى
حبيبٍ لودّنا مشتاقِ
ساءَه ما بنا تبيّن في الأيـ
ـدي وإشناقِها الى الأعناق
فاذهبي يا اميم غيرَ بعيد
لا يؤاتي العناقُ مَن في الوثاق
واذهبي يا أميم ان يشإ الله
ينفّسْ من ازم هذا الخناق

أو تكن وجهةٌ فتلك سبيل

الناس، لا تمنع الحتوفَ الرواقي

يا ابا مسهرٍ فأبلــغ رسولاً

اخوتي ان أتيت صحن العراق

ابلغنْ عامراً وابلغْ اخـــاه

انني موثــَق شديدٌ وثاقي

في حديد مضاعَف وُغلول

وثياب منضّحاتٍ ِخلاق

فاركبوا في الحزام ُفكّوا اخاكم

ان عيراً قد ُجهزت لانطلاق

ولكن أجود ما نرى عند عدي من شعرٍ نظمه في السجن ذاك الذي يخلص فيــه الى

استعراض عز الملوك وجبروتهم وكيف انقرضوا على تقلب الزمن وأحداثه ، فيقول :

اين كسرى ، كسرى الملوكِ ، انو
شروانَ ، أم اين قبله سابور
وبنو الأصفر الكـــرامُ ملوك الـ
روم لم يبق منهـمُ مذكور

الى قوله :

ثم صاروا كأنهـم ورق جفّ
فألوت به الصبا والدبورُ

وفي هذا البيت الاخير صورة رائعة لتمثيل فناء الاشياء . وربمـا بلغ حظ هذه الصورة من الحياة ان يوشك قارىء البيت ان يشهد بأم عينيه

ويسمع بأذنه ، من خلال اللفظ ، كيف يطتاير هذا « الورق الذي جف » وكيف يخش في مهب الرياح .

ومع ذلك فأن شعر عدي يغلب عليه الانكسار والاستسلام ، وتعوزه روح التحدي والعناد للاضطهاد .

الحطيئة

فاذا اقبلنا على عصر الراشدين لقينا في قافلة الشعراء الذين سجنوا ، ونظموا في السجن ، شاعراً محبب الشخصية على علاتها ، هو الحطيئة ... اعتقله الفاروق عمر بن الخطاب وأودعه السجن عقوبة له على ما نهش بلسانه من اعراض بعض القوم طمعاً في كسب العطاء . فأنشد الحطيئة

لهذه المناسبة ابياتاً رقيقة ذكر فيها بنيّاته، وما يقاسين من حرمان وهوان ، واستعطف الخليفة حتى رحمه وأطلقه . وهذه ابيات الحطيئة :

مــــاذا تقول لأفراخ بذي مَرَخٍ
زُغب الحواصل لا ماءٌ ولا شجرُ
أهلي فداؤك كم بيني وبينهمُ
من عرضِ داوية يعمى بها الخبرُ
ألقيتَ كاسبهم في قعرِ مُظلمــــة
فاغفر عليك سلام الله يا عمر !

وما كان مثل هذا الشعر العذب ليقطر من نفس الحطيئة لولا بنيّاته ولولا أن منعه السجن عنهن !

يزيد بن مفرّغ

ولكننا حين ندخل العصر الاموي نظفر من شعر السجون بما هو حقاً أوفر مادة وانفس معنى من كل هـذا الذي سبق لنا ان حظينا به .

ولنكتف بشاعر واحد يُعد من الفحول في هذا الباب ، نقصد يزيدَ بن مفرّغ . وللقارىء ان يستغرب هذا الاسم وله ان يعجب كيف عددناه من فحول شعراء السجون . غير ان القارىء لن يلبث حتى يقتنع بصواب رأينا فيه . فان الخمول الذي احاط ، من بعد ، باسم يزيد بن مفرغ إنما كان لسخط الاوساط الحاكمة عليه . وإن فقدان شعره – إلا بقيةً مذرذرة في بطون الكتب ،

أشبه بأخشاب السفينة المحطمة— إنما كان كذلك نتيجة لهـذا السخط الرسمي الذي صرف عنه الرواة خشية الحاكمين اومسايرةً لهم.

كان يزيد بن مفرغ، هذا ، حميَرياً من عرب اليمن ، اتصل بواحد من ابناء زياد بن ابيه اسمه عبّاد. ووُلي عباد اقليم سجستان فصحبه الشاعر الى موضع عمله . ولكن الجوّ سرعان ما فسد بين الرجلين ، فعبّاد والٍ ، وشقيقه عُبيد الله والٍ هو الآخر يتصرف بشؤون العراق ، ومرتبةُ زياد بن ابيه وابناء زياد معروفة في الدولة الأموية بعد ان سبق لمعاوية ان اعترف بزياد أخاً له .
وما كان يزيد بن مفرّغ ليرضى من عبّـــاد ان يستطيل عليه أو يهمله . فهجاه وسخر من لحيته

وكانت عظيمة جداً كأنها جوالق ، دخلتها لريح يوماً فنفشتها فقال فيها ابن مفرغ :

ألا ليت اللحى كانت حشيشاً

فنعلفها خيول المسلمينا !

فلما سمع عبّاد بالهجاء أضمر له الشر ، وحرّك على الشاعر قوماً لهم عليه ديّن فرفعوا عليه الدعوى ، فحبسه عبّاد حتى يدفع الدين . واذا بالشاعر يضطر أن يبيع فرسه وسلاحه وأثاثه وغلاماً وجارية كان يهواها . واشترى عباد الغلام والجارية . وأمر بتوزيع مال الشاعر على دائنيه . ثم أطلق الشاعر ليعود من حيث أتى خاوي الوفاض بادي الأنفاض . فانطلق ابن مفرغ الى العراق ثم الى الشام يتنقل في المدن

ويرسل الأشعار في هجاء زياد وأولاده . وتحدث
الناس كثيراً بهذا الهجاء ، وبلغ مسامع عبيدالله
بن زياد في البصرة ، فبث عيونه واعوانه في
طلب الشاعر . ولم يكن يزيد يجهل ما ينتظره
اذا وقع في قبضة عبيدالله . فأقام هارباً ما وسعه
الهرب . ثم سعى في ان يستجير بهذا أو ذاك
من وجوه زمانه ، وكلهم يخشى ان يجيره على
عبيدالله ، حتى لقي آخر الأمر رجلاً يقال له المنذر
العبدي كانت بنته زوجة لعبيد الله . على ان
عبيد الله لم يكرّم عمه فكبس داره ، وأخرج
الشاعر فعذبه بألوان العذاب وشهّره بأقبح ضروب
التشهير . قرنه بهرة وخنزيرة وأطافه في الأسواق
ومن حوله الصبية يعبثون به ، وسجنه مدة

وأشبع السياط وأطعم حديد القيد من لحمه وكسر اسنانه ، ثم اعاده الى أخيه عبّاد في سجستان .

ومما يحكى أن الشاعر كان قد كتب بالفحم على جدران بعض الخانات التي مر بها في طريق عودته إلى سجستان اشعاراً من هجوه في زياد وأولاده ، فأمره من كان يخفره من شرطة عبيدالله ان يحكها باظافره فحكها حتى بريت وتهرأت اطرافُ انامله وبضّت دماً . فاستعظمت اليمانية هذا الانتقام البشع ، ورفعوا الأمر الى معاوية في الشام فاستقدم يزيد بن مفرغ وعنّفه ثم خلّى له سبيله وخيّره في المقام فاختار أرض الموصل وبها كانت وفاته سنة ٦٩ هـ (٦٨٨ م) .

أما شعره في السجن فلم نعثر منه الا على

قصيدة لامية نظمها وهو في سجن البصرة لدى عبيد الله بن زياد . وهي قصيدة قوية في معناها تشف عما أوتي هذا الشاعر المتمرد من قوة النفس وتحدي الاضطهاد. تساءل في مطلعها: كيف نوم الأسير في قيوده ، ثم ذكر جاريته التي حيل بينه وبينها ، وفرسه وسلاحه ، فتألم للذكرى ، وثار به إباؤه فنفى أن يكون اتى امرأً دنيّاً ، ثم أسرع الى مخاطبة الوالي عبيد الله فعيّره كيف نكّل به ذلك التنكيل القبيح ، وأنذره بأن آثار ذلك التنكيل كله عَرَض يزول بينما يخلد الشعر الذي هجاه به وترسخ وَصْمته في ذكراه ابد الدهر . ولعمري إنه من اروع المعاني التي خاطب بها شاعر سلطاناً ظالماً . قال يزيد بن مفرّغ :

دارَ سلمى بالخبت ذي الأطلال

كيف نوم الاسير في الاغلال ؟

اين مني السلام من بعد نأيٍ ؟

فارجعي لي تحيتي وسؤالي

أين مني نجائبي وجيادي

وغزالي ؟ سقى الاله غزالي!

أين ؟ لا أين ، جُنتي وسلاحي

ومطايا سيرتها لارتحالي

لا وَصومي لربنا وزكاتي

وصلاتي أدعو بها وابتهالي

ما أتيت الغَداة امراً دنيّا

ولدى الله كابر الاعمال

أيهــــا المالك المرهّبُ بالقتل

بلغت النكالَ كل النـكال

فاخش ناراً تشوي الوجوه ويوماً

يقذف الناس بالدواهي الثقالِ

قد تعديت في القصاص وأدر

كت ذحولاً لمعشرٍ اقتـــال

وكسرت السن الصحيحة مني

لا تـــذلني فمنكر اذلالي

وقرنتم مـــع الخنازير هراً

ويميني مغـلولة وشمــــالي

وأطلتم مـع العقوبة سجنـاً

فـكم السجن ؟ اومتى إرسالي ؟

يغسل الماءُ ما صنعتَ وقولي
راسخ منك في العظام البوالي

***

ليت أني كنت الحليف لِلَخْمٍ
وجُذام وطـيِّءِ الاجيـال

بـدلاً من عصابة من قريش
أسلموني للخصم عند النضال

خـذلوني وهم لذاك دَعوني
ليس حامي الذمـار بالخذّال

ويبدو من الثلاثة الأبيات الاخيرة ان الشاعر اقدم على هجو زياد وأولاده بإيعازٍ وتأييد من

قريش . ولكن قريشاً تخلت عنه عندما ظفر به الوالي وصبّ عليه عذابه .

فهذه هي قصيدة ابن مفرّغ . مثال نادر من شعر السجون في الأدب العربي القديم لأنها تشق نغمةً جديدة غير نغمة الانكسار والاستعطاف وتعزية النفس بأن كل شيء زائل وكلُّ سرور صائرٌ الى نكد وبلاء .

عبدالله الطالبي

وفي الفترة بين انهيار الامويين واستتباب الأمر للعباسيين يمرّ شاعر عربي في قافلة شعراء السجون ماينبغي لنا ان ننساه ، ذلك هو عبدالله الطالبي من أحفاد جعفر الطيار شقيق الامام

عليّ ... لم يكن عبدالله هذا رجلاً احترف الشعر وأنما كان فارساً زعيماً ظهر بالكوفة فخلع طاعة الامويين ، فقاتله هؤلاء حتى ألجأوه الى بلاد فارس حيث استقل بالسيادة امداً من الدهر وُجبي له الخراج وهو بمدينة اصطخر. ولكن ابن هبيرة، والي الامويين على العراق ، جرّد عليه حملة اكرهته على الارتداد الى مدينة هراة . فلما انقرضت دولة الأمويين أمر ابو مسلم الخراساني بأخذه وقتله لأنه ابى الانصياع للعباسيين ... وأكبر الظن ان هذه الأبيات القليلة، التي انحدرت الينا عن عبد الله الطالبي في السجن فانتشرت في الآفاق وخلدت شهرتها على الأجيال انما قالها وهو سجين في هراة بأمر من ابي مسلم قبل ان

قرّ الرأي على قتله . ومن هنا كانت هذه الأبيات تشتمل على لوعة ووحشة قلّ ان عرفناهما في شعر السجون لدى العرب . فقد ينبغي لنا أن نذكر أن ابا مسلم الخراساني كان حرباً على هؤلاء الامويين الذين جرّد عبد الله سيفه لحربهم . وقد ينبغي لنا ان نذكر ان دعوة الشيعة ودعوة العباسيين كانت يومذاك واحدة على الأمويين . فاذا توقع عبد الله الطالبي سجناً واضطهاداً لثورته على بني امية فهو من غير ابي مسلم يتوقع هذا السجن والاضطهاد . ولذلك غلبت على ابيات عبدالله تلك اللوعة والوحشة ، وتلك الكآبة العميقه التي لا تدري من تناشد بعد ان لقيت الشر ممن تنتظر منهم الخير فهي إذاً تناشد المروءة الانسانية إطلاقاً :

ألا أحدٌ يأوي لأهل محـــلة

مقيمين في الدنيـا وقد فارقوا الدنيا

وهذه ابيات عبد الله الطالبي بكل مايتململ فيهـــا من حزن محرق وينساق معها من معنى غريب .

خرجنا من الدنيا ونحن من اهلها

فلسنا من الاحياء فيها ولا الموتى

اذا دخل السجّان يوماً لحاجة

عجبنا وقلنا جاء هـذا من الدنيا

ونفرح بالرؤيا ، فجـلُّ حديثنـا

اذا نحن اصبحنا الحديثُ عن الرؤيا

فان حسُنت لم تأت عجلى وأبطأت

وان قبحت لم تحتبس وأنت عجلى

طوى دوننا الاخبارَ سجنٌ ممنّعٌ

له حارس تهدا العيون ولا يهدا

قُبِرنا ولم نُدفن ونحن بمعزل

عن الناس لا نُخشى فنُغشى ولا نَغشى

الا أحد يأوي لأهل محلة

مقيمين في الدنيا وقد فارقوا الدنيا

والقارىء في غنى عن أن ندله على مكامن اسرار الجمال في هذا القصيد ، وعلى عمقه في تمثيل نفسية أولئك السجناء الذين طغى عليهم صقيع من القنوط صرع كل أثر للرجاء في صدورهم فقوله :

« عجبنا وقلنا جاء هذا من الدنيا » وقوله :
« ونفرح بالرؤيا الخ ... » رائع حقاً تختلج له أغوار الضمائر .

ولكننا نكرر ان هذا القصيد اذا توفر فيه الالم والاغراب في المعاني فقد فاته حظه من التحدي والتمرد على النحو الذي وجدناه في شعر يزيد بن مفرغ ، وعلى النحو الذي نجده في شعر شاعر عباسي ننتقل اليه الساعة هو علي بن الجهم .

علي بن الجهم

وكان ابن الجهم هذا عربياً من اهل بغداد عاصر ابا تمام وتصافيا الود . وفيه يقول ابو تمام

ابياته المشهورة في رثائه :

أعليُّ يا ابن الجهم انك دفت لي
سماً وجمراً في الزلال البارد
لا تهلكنْ ابداً ولا تبعد ، فما
اخلاقك الخضر الربى بأباعد
ان يختلف ماءُ الوصال فماؤنا
عذب تحدر من غمام واحد
او يختلف نسب يؤلّفْ بيننا
ادب أقمناه مقام الوالدِ

وبرغم رقة ابن الجهم والدماثة التي تظهر على غزله ، فلقد كان مُرَّ النفس صعب الشكيمة عظيم الشجاعة . فلم يكن في طبعه ان يتحمل

ضغط السلطان ولا إدلاله . فوقعت النفرة بينه وبين الخليفة المتوكل فحبسه . ولقي ابن الجهم مصرعه في معركة عند حلب نشبت بينه وبين بعض الاعراب حين تعرضوا للقافلة التي كان مسافراً فيها سنة ٨٦٣ م (منتصف القرن الثالث للهجرة) .

وهي قصيدة رائعة تلك التي سبكها ابن الجهم يوم حبسه المتوكل تزخر ابياتها بقوة من عزيمة الشاعر وتشمخ بعلو من شمم روحه. وفيها مثال من اسلوب المناقشة الذي شاع في الشعر بشيوع الفلسفة في ذلك العصر مع تعمق في الفكر يبلغ بالشاعر ان يلمس العلاقة بين الاضداد في الوجود وكيف ينقلب الضد الى ضد ويتولد

ضد من ضد .

لا ينسحق ابن الجهم تحت وطأة هذا السجن الذي حاصره بجدرانه وغمّه بظلمته . لا، ولا يسترحم ولا ييأس . ذلك ما تمنعه منه نفسه الأبيّة. ولكنه يجيب الذين عيّروه بالحبس فيقول لهم : إذا حبست فهل رأيتم سيفاً لا يغمد؟ وهل رأيتم اسداً لا يأوي الى عرينه كبْراً بينما يسرح اوباش الحيوانات على الابواب لكسب القوت ؟ ثم يزداد الشاعر تعمقاً فيهتدي بثاقب فكره الى منافعَ للسجن وظلمته ومنافع للعذاب ومحنته . فهذا الحجر الصلد الذي تكمن فيه النار لا تنقدح ناره إلا بالحك العنيف وهذا البدر لولا أنه ينحجب لما تجدد وعاد بهياً مشرقاً. وهذه الرماح

لولا انها تحمى بالنيران و تطرق لما استقامت ولما أرهف سنانها . وهذا العيش احوال ، فمن نعيم ومن شقاء ، ولربما كان شقاؤه سبيلا الى نعيمه . فلا سبب لليأس ما دام مع اليوم غد . ولا داعي للخجل والشعور بالمعرة ، ما دمت لم تحبس لدناءة ارتكبتها .

وعلى هذا النحو يمضي ابن الجهم حتى يخلص الى مخاطبة المتوكل وقاضيه احمد بن ابي دؤاد . فلا يبخل عليهما بكلمة مدح . ولكنه الى ذلك يعاتبهما عتاباً فيـه تأنيب وتوبيخ ، ويطالبهما بالانصاف مطالبة من يعلم ان له حقـا . فيقول للمتوكل : ما دمت ابن عم النبي محمد فأنت اولى باتباع شرعته ، فلا تقبل بظلم الناس . ويقول لابن

ابي دؤاد : كيف قضيت علينـــا بشهادة من حضر ونحن غائبون ، ولو اننا حضرنا لأظهرنا لك الطريق الأقوم . وفي كل هذا معاتبة كما قلنا بل تأنيب وتوبيخ . وفيه مطالبة بالانصاف يجهر بها من يعلم ان له حقاً يتقوى به على هذا الافحام.

وهذه قصيدة ابن الجهم :

قالوا حبست، فقلت ليس بضائري

حبسي وأيُّ مهنَّد لا يغمد ؟

أو ما رأيت الليث يألف غيله

كبراً ، وأوباش السباع تَردّد

والنار في أحجارها مخبوءَة

لا تُصطلى ما لم تُثرها الأزند

والبدر يدركه السّرار فتنجلي

أيامه وكأنه يتجدد

والزاغبيّة لا يقيم كعوبَها

إلا الثّقاف وجذوة تتوقد

لا يؤيسنّك من تفرّجِ كربة

خطب اتاك به الزمان الأنكد

فلكل حال معقب ولربما

أجلى لك المكروهُ عما تحمد

صبراً فان اليوم يعقبه غدٌ

ويد الخلافة لا تطاولها يد

والحبس ما لم تغشه لدنيّة

شنعاءَ نعم المنزل المتورّد

بيت يجدد الكريم كرامةً
ويُزار فيه ولا يزور، ويُحمد !

أبلغ أمير المؤمنين، ودونه
خوف العدا ومخاوفٌ لا تنفد

انتم بنو عمِّ النبيِّ محمد
اولى بما شرع النبي محمد

يا أحمد بن ابى دؤادٍ انما
تُدعى لكل كريهة يا احمد

ان الذين سعوا اليك بباطل
اعداء نعمتك التي لا تُجحد

شهدوا وغبنا عنهمُ فتحكموا
فينا، وليس كغائب من يشهد

لو يجمع الخصماءَ عندك منزلٌ

يوماً لبان لك الطريق الارشد!

وقد عارض هذه القصيدة شاعر يقـــال له عاصم بن محمد الكاتب حين حبسه ابن ابي دلف العجلي القائد العبــاسي الشهير ، فلم يصنع في معارضتها شيئاً ، وإنما ذكر بلاء السجن ونكد العيش فيه وفرغ الى استجداء الصفح والمغفرة بما لا يخرج عن المعاني التقليدية المتدارسة .

وهنا فلنثبت ان ابن الجهم انما بلغ بقصيدته ذروة المنهج الذي اختطـّه يزيد بن مفرّغ في شعر السجون في الادب القديم ، كما بلغ عبـــد الله الطالبي ذروةَ المنهج الآخر الذي اختطه عديّ

بن زيد المنادي . ويفترق المنهجان في ان احدهما يقابل السجن والعسف بروح متمردة متحدية ، بينما يقابله المنهج الآخر بروح منكسرة تلتمس العفو والرضى .

ابن المعتز

ولابن المعتز ايضاً – وهو من العباسيين – شعر في السجن يستحق ان ننوه به ، قال :

مرت بنا سحَراً طيرٌ فقلت لها:

طوباك ، ياليتني اياك طوباك !

وما كان بن المعتز يرغب في الخلافة ولكن انصاره حملوه على قبولها بعد خلع المقتدر ، غير

انه ما كاد يُبَايَعُ خليفةً حتى وجد نفسه سجيناً، ثم قتيلاً، فغنّى شوقه اللاعج الى الحرية بهذه المناجاة المؤلمة للصورة السانحة في الفضاء.

ابو الطيب المتنبي

واذا ذكر الشعراء الذين تمرسوا بالسجن ونظموا فيه فما ينبغي لنا ان ننسى في القافلة ابا الطيّب المتنبي على انه لم يعرف السجن حقيقةً بجدرانه القائمة وقيوده الثقيلة إلا في الدور الاول من حياته، وعودُه لم يصلُب بعد، وعبقريته لم تتفجر ولم تصخب صخبها الاوقيانوسي... سُجن ابو الطيب على يدي لؤلؤ الاخشيدي والي حمص،

ويقال انه كان قدذاق السجن من قبلُ بالكوفة . ولكن مهما يكن من شيء فإنا نجد أبا الطيب مقبلاً على سجنه بنفسه الذاهبة شموخاً في السماء . وكان له سجّان ، رجل يدعى ابا دلف يبدو انه لطف بأبي الطيب إبان حبسه ، لأنه لقيه بالأمس وصادقه . فنظم فيه ابو الطيب هذه الأبيات:

أهوِنْ بطول الثواء والتلف

والسجن والقيد يا أبا دلف

غير اختيار قبلت بِرّك بي

والجوع يرضي الاسود بالجيف

كن ايها السجن كيف شئت فقد

وطنت للموت نفس معترِف

لو كان سكناي فيك منقصة

لم يكن الدر ساكن الصدف !

ولقد يبحث المرء طويلاً عن شعر يصور هذه المأساة المفجعة التي تُكره النفوس الكبيرة في اوقات المحنة ، ان ترضى ما لا ترضاه في العادة ، فلا يجد ما يشبه قول ابي الطيب :

«والجوع يرضى الاسود بالجيف». ثم قد يبحث المرء طويلاً عن شعر يمثل التحدي للأضطهاد فلا يجد ما يضارع هذا الخطاب الذي فاه به ابو الطيب بصيغة الأمر ووجهه الى السجن تعالياً واستخفافاً اذ قال : « كن ايها السجن كيف شئت ! »..

وأما اعتذاره لنفسه بان السجن ليس منقصة لها

« ما دام الدر ساكن الصدف» فانه غاية الغاية في الروعة .

غير ان ابا الطيب في هذا الدور المبكر من حياته ُقبيل ان يجب عليه سجود الصلاة ، كما يقول ، ما لبث ان ضاق ذرعاً بالسجن وبابِه الموصَد وما لبث ان برم صدراً بهذا القيد الذي يعضه في رجله وهذا الهزال الذي يستبد بجسمه الناحل ، فشكا ذلك كله الى الوالي واستعطفه بكلام نِسبته الى نفس ابي الطيب كنسبة مواء القطط الى زئير الأسود :

أما لِكَ رقيّ ومَن شأنه
هبات اللجين وعتق العبيد

دعوتك عند انقطاع الرجاء

والموت مني كحبل الوريد

دعوتك لمّا براني البلاء

وأوهن رجليّ ثقل الحديد

وقد كان مشيهما في النعال

فقد صار مشيهما في القيود

تعجّل فيّ وجوب الحدود

وحدّي قبل وجوب السجود!

لكن ابا الطيب ان لم يتمرس بالسجن حقيقة الا في هذا الدور من حياته ، فهزأ اول الأمر بالقيد والسجّان وتحدى الاضطهاد ثم لانت قناته وتحطم عنفوانه ، فأنه قد امتُحن فيما بعد

— وهو نزيل مصر — بضرب من الاعتقال شرٌ
من الحبس الحقيقي حين ضبطه كافور لا يأذن له
بالرحيل ولا يلبي رغائبه . وفي هذه المرة لم
يتحطم عنفوان أبي الطيب ولا لانت قناته بل
انشد في فترة هذا الاعتقال المعنوي قصائد ما
ردَّ بمثلها شاعر، ولا حرَّض بمثلها شاعر في الادب
العربي القديم على حاكم اساء اليه .

نامت نواطير مصرٍ عن ثعالبهـــــا
وقد بشِمن وما تفنى العناقيـــد
ما كنت أحسبني أحيا الى زمن
يسيء بي فيــه عبد وهو محمود
جوعانُ يأكل من زادي ويمسكني
لكي يقال عظيم القدر مقصود

ابو فراس الحمداني

يبقى شاعر واحد من شعرائنا القدامى اورث في موضوع السجن قصائد ُكتب لهاحظها في الخلود فما يسوغ لنا ان ُنغفله. هو ذلك الأمير الفارس ابو فراس الحمداني .الا ان شأنه يختلف عن بقية شعراء السجن في سالف الأدب العربي. فأنأبا فراس لم يسجنهخليفته او ملكه اوواليه، بل وقـع اسير حرب لدولة أجنبية هي الدولة البيزنطيـة وذلـك في منتصف القرن الرابع للهجرة . وفي مـدة من اسره، الذي طال نحواً من سبـع سنوات ، سجنه البيزنطيون وأخشنوا معاملته . وإشارةً الى ذلك يقول معاتباً ابن عمـه :

يا واسع الدار كيف توسعها
ونحـــن في صخرة نزلزلهـــا

وليست هذه «الصخرة التي يزلزلها» ابو فراس واصحابه الا الاشغال الشاقة التي فرضت عليهم او القلعة التي حبسوا فيها ، قلعة خرشنة او القسطنطينية نفسها .

أسر ابو فراس ووراءه ام عجوز في منبـــج حضنته يتيماً وفرّغت له همها وقلبها فعَلِقها بما لم يعلق ولد امه . وأسر ابو فراس وهو يستميت في القتال تحت لواء الدولة الحمدانيـــة واميرهـــا سيف الدولة ابن عمه . فكان اقل ما ينتظره ان يسرع ابن عمه في بذل الفداء له كيما يعود الفارس

الى امه والى رفاقـه في الجيش والى اخوانـه في مجالس الأدب فيستمتع بالحيـاة – وهـو ما برح فتى يهوى متع الحياة – ويواصل سيرته في الحرب وهو القائد الشجاع .

سوى ان ابن عمه أبطأ وماطل في بذل هذا الفداء ، ولم يصغ إلى شفاعة الأخوان ولا رحم ضراعة الأم . ولأمر مـا فعل سيف الدولة مـا فعل : فهل قصرت يده حقاً عن جمع المال لدفعه ، أم رضي بتنحية أبي فراس على هذا النحو لئلا يزاحم على الامارة ابن سيف الدولة وولي عهده أبا المعالي ؟ لسنا ندري . ولكننا ندري ان ابا فراس احس جرحاً ممضاً يتفتح في دخيلة نفسه لهذا الأهمـال والتقصير من جـانب ابن عمه .

واشتياق امه العجوز اشتياقاً محرقاً وحن الى اخوانه وملاعب صباه ومسارح شبابه حنيناً لاعجاً مثيراً فأرسل القصيدة تلو القصيدة الى ابن عمه يشرح له سوء حاله في الاسر ويعاتبه عتاب صاحب الدالة وصاحب الحق عليه . وأرسل القصيدة تلو القصيدة يدعو فيها امه الى الصبر والاعتصام بالايمان ، او يذكر به اخوانه الباعدين والبعد جفاء .

ولعل ابلغ قصيدة صوّر فيها ابو فراس شقاءَه وشقاء اصحابه في الاسر ، وبلغ بها الغاية في قوة العتاب ، لاميّته التي مطلعها :

يا حسرةً ما أكاد أحملها

آخرها مزعج وأولها

ومنها في عتاب سيف الدولة ولومِه على الحياة الرافهة التي يحياها بينما يشقى ابن عمه واصحابه في اسرهم لدى العدو :

يا ناعم الثوب كيف تُبدله ؟
ثيابُنا الصوف ما نُبدّلها !
يا راكب الخيل لو بصرت بنا
نحمل اقيادنا وننقلها !
رأيتَ في الضر اوجهاً كرمت
فارق فيها الجمالَ أجملها
قد أثر الدهر في محاسنها
تعرفها تارة وتجهلها

وله قصيدة – او مقطوعة من روائع الشعر الغنائي – يباهي بها الحمامة وقد سمعها من وراء جدران سجنه تهدل هديلها الشجي الكئيب برغم أن لها ملء الفضاء حرية ومدى انطلاق . قال من هذه المقطوعة :

ايضحك مأسور وتبكي طليقة
ويسكت محزون ويندب سالِ
لقد كنتُ أولى منكِ بالدمع مقلةً
ولكنّ دمعي في الحوادث غالِ

وهكذا يبدو ان أبا فراس في هذا الشعر الذي ارسله من الاسر إنما دار على المعاني التي تنقر أوتار القلب وتثير الشجن وتناجي شعور

الشفقة . ومع ذلك فله التماعات خرج فيها على هذا فتناول ابن عمه بالتوبيخ الشديد لاهماله حقه وحق صحبه ممن وقعوا في الاسر . فلنقرأ مثلا قوله :

انت سماء ونحن انجمها

انت بلاد ونحن اجبُلها

انت سحاب ونحن وابله

انت يمين ونحن أنملها

واننا لنجد في هذه المعاني من نفح الرجولة وقوة المحاسبة ، ما لا نجده في سائر شعر ابي فراس . فمن عسى ان يكون سيد الدولة او غيره من الحكام اذا هو فرّط في حقوق رجاله وتخلى

عما يجب لهم عليه ؟ ومثل هذا المعنى كان ينبغي لابي فراس ان يُكثر منه وان يتوسع فيه خلال رومياته او قصائده التي نظمها في اسره وسجنه لدى البيزنطيين .

خلاصة في شعر السجون
في الادب العربي القديم

وهنا فلنمسكْ عند ابي فراس في هذا اللمح السريع الذي استعرضنا بـه قافـلة من شعراء السجون وشعرهم في ادبنا القديم . ولنلبث هنيهة قبل النقلة الى الديوان الذي قصد بالذات من كتابة هذه المقدمة ، ريثما نجمل تلك الاتجاهات التي اخذ بها شعراؤنا القدامى ، مع ما اشتملت عليه تلك

الصفات والاتجاهات من نقص وابداع (أو مما نعتبره نقصاً وابداعاً .)

فنستخلص أول شيء ان اولئك الشعراء الذين تمرسوا بالسجون وقالوا فيها الشعر معبرين عن خوالج النفس وسوانح الفكر مما يعرض في هذا الجو وراء قضبان الحديد وفي سلاسل القيود، قد وقفوا موقفين وانقسموا فريقين:

فمنهم من وصف فنون البؤس والوان العذاب التي يعانيها السجين ، وتنصل من كل ذنب وتبرأ من كل شبهة ، واقسم الأيمان المغلّظة ، وطلب الرحمة من حاكم يسجنه وحاكم يستطيع انقاذه من السجن ، وشفع ذلك كله بروح سوداوية متشائمة منسحقة مثّلها له عبث الاشياء ومصيرها الى الفناء .



ومنهم (من هؤلاء الشعراء) من تحدى السجن والاضطهاد واثبت ان البلاء محك الرجال وان الشدائد جلاء لجواهر اخلاقهم النفيسة ، وحاسب الحكام الذين دفعوا به الى الحبس محاسبة عسيرة وهددهم بدمغة العار التي تلحق ذكرهم من جراء هذا الشعر الذي يهجوهم بـــه ويقص سيرتهم في الظلم والاستبداد . وهؤلاء الشعراء احب الينا . وشعرهم في مذهبنا ابدع واروع . لأنه يفور من معين هـــذا الغضب الانساني الشريف على الجور والطغيان .

وهنا ينبغي لنا الاعتراف بان شعراءنا الذين انتهجوا هذه الطريق في شعر السجون هم اقل عدداً .

وثمة نقص يبدو على شعرائنا القدامى ممن

نظموا في السجون فهؤلاء جميعاً، حتى حين يشددون في محاسبة الحكام وفي إنــذارهم لهم ، لا تراهم يصدرون عن الشعور بأن اضطهادهم جزء من اضطهاد شعب أو أمة ، ثم لا تراهم يستنصرون هذا الشعب على ولاته المتعسفين . وقــد يشذ المتنبي عن هذه القاعدة في فترة اعتقاله المعنوي في مصر . فانه ليخاطب المصريين وانه ليتوخى ثورتهم على كافور ، ولكنــه يتوسل الى غايتــه بأسلوب عجيــب اذ يلسعهم بسياط التقريع والتحقير فيقنطهم من الخير في انفسهم بدل ان يحيي فيهم الايمان بقدرتهم على التحرر وخلع نير « العبد » .

وثمــة ايضاً نقص هو ان شعراء السجون ممن

وصفوا فيها انعدام النور وثقل القيود والعفونة والرطوبة وشدة التنكيل لم يخطر لهم ببال ان السجون ما ينبغي لها ان تكون للانتقام ، حتى من المجرمين ، ولكنها لإصلاحهم . فالسجين حتى المجرم الذي يزج به في محبس وقاية للمجتمع من خطره انما يحق له ان يعامل المعاملة التي تصلح من امره وترده الى المجتمع رجلاً نافعاً . على ان هذا المعنى -- والحق يقال -- اقرب الى ان يعقله العصريون من ان يعقله الأقدمون . ولعل اول من اثار هذا المعنى -- ولو من بعد -- هو الشاعر معروف الرصافي في قصيدته « سجن بغداد » فانه لا يدافع فيها عن سجين بالذات ولكن عن قضية السجناء جميعاً ؛ يصور

تصويراً واقعياً ما يغمر هذا السجن من ظـــلام وكثافة وحر وروائح نتنـــة ، ويعد ذلك من الظلم الاجتماعي المنشب براثنه في الأمة . ويعجبني من هذه القصيدة الممتعة قول الرصافي :

زر السجن في بغداد زورة راحم
لتشهد للانكاد أفجع مشهـد
هناك يود المرء لو قاه نفسه
واطلقها من اسر عيش منكد
مقابرُ بالاحيـــاء غصت لحودها
بخمس مِئينٍ أنفـُسٍ او بأزيد
وقـــد عميت منها النوافذ والكوى
فلم تكتحل من ضوء شمسٍ بمرودِ !

- ٢ -

ثم ماذا ، بعد هذا الذي « حصدناه » خلال العصور من شعر السجون في الآداب العربيـة ، الا ان ننتهي الى هذا الحصاد الذي جمعه شاعر واحد، معاصر ، خلال ثلاثة واربعين يوماً تمرس فيها بآفات السجن – وكدت اقــول بوحي السجن .

كان ذلك عام ١٩٤١ والحرب قائمة على قدم وساق بين الحلفاء والمحور . واذا بي اسمع ان صديقي أحمد الصافي النجفي قد اعتقل – اعتقلته السلطات الحليفة التي دخلت سوريا ولبنان بعد عهد الفرنسيين « الفيشيين » .

فأما التهمة الرسمية التي كان بها اعتقاله فإنها

شبهة النازية . وأذكر ان ذلك آلمني جداً لأنني كنت ولن أبرح عدواً للنازية في أي الصور تمثلت أو أحدثت . وبرغم أني لااستطيع تأكيداً انني كنت ، او انني انا اليوم ، على وفـــاق تام مع صديقي الصافي في الرأي السياسي والمذهـــب الاجتماعي والمفهوم بالقومية والوطنية ، فان ما خبرته من الصافي خلقاً واحساساً وتفكـــيراً وشعراً يخولني ان أشهد بأن معدنه النفسي أبعد شيء عن معدن النـــازية . ولكنّ سلوك بعــض الدول الديموقراطية ، طوال الفترة بين الحربين العالميتين : الاولى والثانية ، جعل عسيراً على كثير من الوطنيين ان يبصروا النازية على حقيقتها نكسة استعمارية وحشية تنزل بأهل الارض جملة

وبالحضارة عامة وبالشعوب المستضعفة خاصة ؛ نكسة استعمارية وحشية كتب عليها التاريخ الفناء كما كتبه على كل استعمار . فاذا سمعت الشاعر يُنشد اذن في ديوانه مثل هذا الشعر :

واشرفت من سجني على البحر قائلاً

من البحر يأتينا الخلاص او « البحري »

ورأيته يعلق على ذلك بان « الاستاذ يونس البحري كان ينعش آمال القوميين العرب باذاعاته عن برلين » فلا يغرنك هذا الدليل الشكلي على « نازية الصافي » ولا تخلْ انك لمست لمس اليد « الحقيقة التي تثبت الجرم » ، بل فتعمق الى ما وراء الشكل والعنْ سلوكاً ديموقراطياً مزعوماً كان من ردّ فعله مثل هذا الشعر وهذا المعنى .

بل فتقدم في هذا الديوان — أو الدُوَيوين الذي يحلو لي تصغيره حباً واستلطافاً — تجد الشاعر وقد اشتدت وطأة الحرب في الجولة الأولى على المستعمرين العريقين فلوحوا بالحرية للشعوب المستضعفة ، ومنها نحن ، كيف يروعه هذا النفاق نفاق الاستعمار العجوز في أزمته فينشد :

منحونا حرية حين مُدّت

نحو أعناقهم يــد الجزار

فتدرك ان النازية لم تخرج في ضمير الشاعر عن ان تكون جزاراً . ولكنه يقرّع المستعمرين العريقين لأنه لا يرى في تلويحهم بالحرية — وهم في مثل هـذا المأزق وعلى شفا ذلك الجرف — الا ضرباً من الكرم في « حالة الاحتضار » ، ثم لا

يرى في استنصارهم الشعوب التي استعمروهـــا واستغلوها الا نوعاً من « فرصة موت » يتيحونها لتلك الشعوب اذ يستدرجونها الى الحرب .

والفرق بعيد بين هذا كله وبين النازية .

يبقى ان هذا الحصاد الذي حصده صديقي الصافي من سجنه شهراً وثلاثة عشر يوماً هو حقاً اغزر مجموعة مما نظم شاعر عربي في السجن، وأنفس مجموعة ، سعة معنى وغرابة خواطر وصور .

روى الصافي في هذا الشعر قصة نفسه وما عرض في هذه الايام الثلاثة والأربعين التي قضاها بين الجدران الموحشة رواية واقعية تتشح فيهـــا الحقائق بسربال الخيـــال ويمكن تقسيمها على قصرها – ثلاثة فصول : يدور اولها على السبب

الأصيل لدخول الشاعر السجن (وهنا يدرك الشاعر ان مُشكلته من مُشكلة قومه) ،ويتعلق ثاني فصولها بحياته في السجن ثم بسجنه في المستشفى بعد مرضه ؛ وأما ثالثها فأبيات ارسلها في وداع السجن .

وفي خلال ذلك كله تنتشر عبقرية الشاعر لتلمّ بكل شيء مما يعاني حوله أو مما يتمرس به في جسمه ونفسه أو مما يتصل بدواعي نزوله هذه الغيابات . فيصف غرفته الواطئة السقف التي « تحب في الضيف القِصر » ويفتخر بسجنه اذ « يقضي فيه حق اقوامه » ويعمل على تكسير اصنام المستعمرين ويصف زملاءه في هذا القبر ثم مرضه ونقله الى المستشفى وذلك الشرطي الذي

نُصب حارساً عليه » كأنه اعلان على بابه » ، ويصور ثقل هذا الليل الذي يهبط عليه مرهقاً موحشاً بين الجدران الاربعة ، المنضمة عليه كطوق الحصار .

وانه لمن الدعوى الخائبة ان نحاول سكب الجمال الذي تفيض به خواطر هذا الديوان وصوره في سطور من نثر . فالشعر اذا فك نظامه سقط موضع التعجب منه كما يشهد استاذنا الجاحظ . بل لا يُغني استشهادنا ببعض ابياته مهما لطفت وراعت فان الايماضة الخاطفة لا تقوم مقام التأمل العميق والامتلاء الطويل . ولكن وجد لنا العذرَ من قال : ما لا يدرك كله لا يترك جله ، فنحن دالون إذاً على خصائص المتعة واسرار الفتنة

في هذا الديوان ، ورأسها تلك الروح الفكهة ، التي تشعّ في اجزائه فتبـدّد من وحشة الجو الذي يصوره الشاعر .

لا اعني ان عنصر الألم مفقود في هذا الشعر فأنه ينفح ألماً ويلفح غضباً لـُظلامة الشاعر وظلامة قومه واستبداد المستعمرين. على ان الصافي مسح على ذلك كله بالفكاهـة والسخرية ، ولن نجد كالفكاهـة والسخرية علامة من علائم عافيـة الروح وتحدي الاضطهاد والجور .

اصغ الى الشاعر يشرح لـك حكاية هـذه المفاوضات التي يصح ان نسميهـا « مفاوضات الدول الاربع » في سبيل الافراج عنه:

حكومة لبنان قد راجعت

فرنسا لفكي فلم تسطِع

وراحت فرنسا الى الانكليز

تراجعهم ، جَلّ مِن مرجع

وقد راجع الانكليز العراق

واليوم بالأمر لم يصدع

فقلت: اعجبوا ايها السامعون،

ويا ايها الخلق قولوا معي

امن قوتي صرت ام ضعفِهم

خطيراً على دول اربع ؟

فهذا من اوجع السخر الذي انطوى على الجد ، وناهيك بالاستفهام التهكمي الذي يقبِل

مفاجئاً في خاتمة الأبيات !

ثم اسمع قوله :

رمونا كالبضائع في سجون

وعافونا ولم يبدوا اكتراثا

رمونا في السجون بلا اثاث

فاصبحنا لسجنهم أثاثا !

وهذا ايضاً من بديع التخيل الفكه الذي يأخذ الظالمين بقهقهة موجعة لتكديسهم البشر في سجونهم كأنهم اثاث لها لا لحمٌ ودمٌ يحس ويعقل .

ويعجبني من فكاهـــة الشاعر وسخريته قوله :

حسبت لطول السجن انيَ في قبر :

فان يخرجوني منه آمنت بالحشر

فهذا الايمان بالحشر لهذه المناسبة ظريف حقاً ، واظرف ما فيه انه يسوقه على سبيل « اغراء » من سجنوه بأن يطلقوا سراحه ، وهكذا تراه يعبث بهم هذا العبث الرائع .

والمتعة الثانية التي أنت واجدها في هذا الديوان دقةُ الوصف وغرابة التخيل . خذ مثلاً قصيدته « غرفة ام صندوق » ، وتأمل ذلك التصوير الباهر للغرفة الضيقة وسقفها الهابط. ثم تأمل ذلك التصوير « للشنتة » بعد ما بث فيها حياة من حياته فهي تنطق ... تسأله متى

السفر : وهي تشكو له كربتها وتبكي .

وناهيك بقوله :

تبكي بعين حالها

ودمعها قد استتر

كادت من الغبار ان

تفقد عيناها البصر

ثم خذ مثلاً آخر على دقة الوصف وغرابة التخيل قصيدة « ألواح وأشباح » أو « ملحمة السجن » كما سماها أو « معلقة السجون » كما أسميها . والواقع انك اذ تبلغ هذه المعلقة فقد حططت الرحل عند أبدع تحف الديوان وعند أروع تمثيل وابلغ مناجاة جادت بها عبقرية شاعر عربي لليل في السجن ،

وللسجن في الليل ! وغبنٌ ان اجتزيء لك من هذه القصيدة البيت والبيتين فان من حقها ان تقرأ كاملة ، ثم تعاد قراءتها مرة ومرة ليتهيأ هذا الجو الصحيح من عمق التجاوب بينك وبينها ؛ هذا الجو الذي يستحيل من دونه ان ينصف القاريء شعراً او شاعراً .

وبعد ... فكثيرة هي المتع والفتن التي انت واجدها في هذا الديوان : متــع معنوية وفتن عبارية ، وهنا اوصيك ان لا تغرك البساطة في اكثر نظم هذا الديوان فان من البساطة مايكون هو السهل الممتنع وهو السحر المحير . والصافي اشعر شعراً من ان يزيف نظمه لدى عينيك بالزخرف كما يزيّف الخرز البراق بدعوى انـه

الجوهر . يقول الصافي :

ألبست أشعاري لباسي ساذجاً
كي لا اخادع باللباس الرائي
لم استطع سبق الورى بزخارف
فسبقتهم ببساطتي الحسناء !

ما أصدق قول الصافي في نفسه ! ولقد سبق لي اول اطلاعي على هذا الديوان ان قلت لشاعره : « هذا شعر إن فاتني شرف نظمه فلن يفوتني شرف نشره ! » فاذا بي الآن وقد اكرهتني ظروف قاهرة على التنازل عن شرف نشره ، أرى حسبي ان اقف بعتبة هذا الديوان آخذ بأيدي رائديه الى داخل عتبة

الهيكل وأبقى عندها. ويقيني ان رائديه سيقبلون على الديوان كثراً وسيوافقونني على قولي انه أغزر مجموعة من شعر السجون لشاعر واحد في الأدب العربي قديمه وحديثه ، بل أنفس بمجموعة شعرية في هذا الموضوع تشارك شعراء العرب في افضل معانيهم في هذا الباب ثم تبذهم على الجملة سعة واغراباً وعمقاً .

فانك لواجد في هذا الديوان قبساً من قوة النفس وومیضاً من تحدي الاضطهاد وعزفاً حمساً حاراً في تمجيد التضحية على مذبح الحرية ، ولن تجد ذلك كله مجتمعاً لك عند شاعر واحد من شعراء السجون في ادبنا قديمه وحديثه .

ولكنك – وهنا لا بد من التنويه بهذا

النقص – لا تزال تحس الشاعر فرداً ليس إلا ، وان هو ادرك ان مشكلته من مشكلة قومه . تحسه فرداً يألم ، وفرداً يغضب ، وفرداً يسخر ، وفرداً يعبث ، وقلّ ان تتراءى لك من أمامه أو ورائه ، او عن جانبيه أخيلة من شعب تتحرك ...

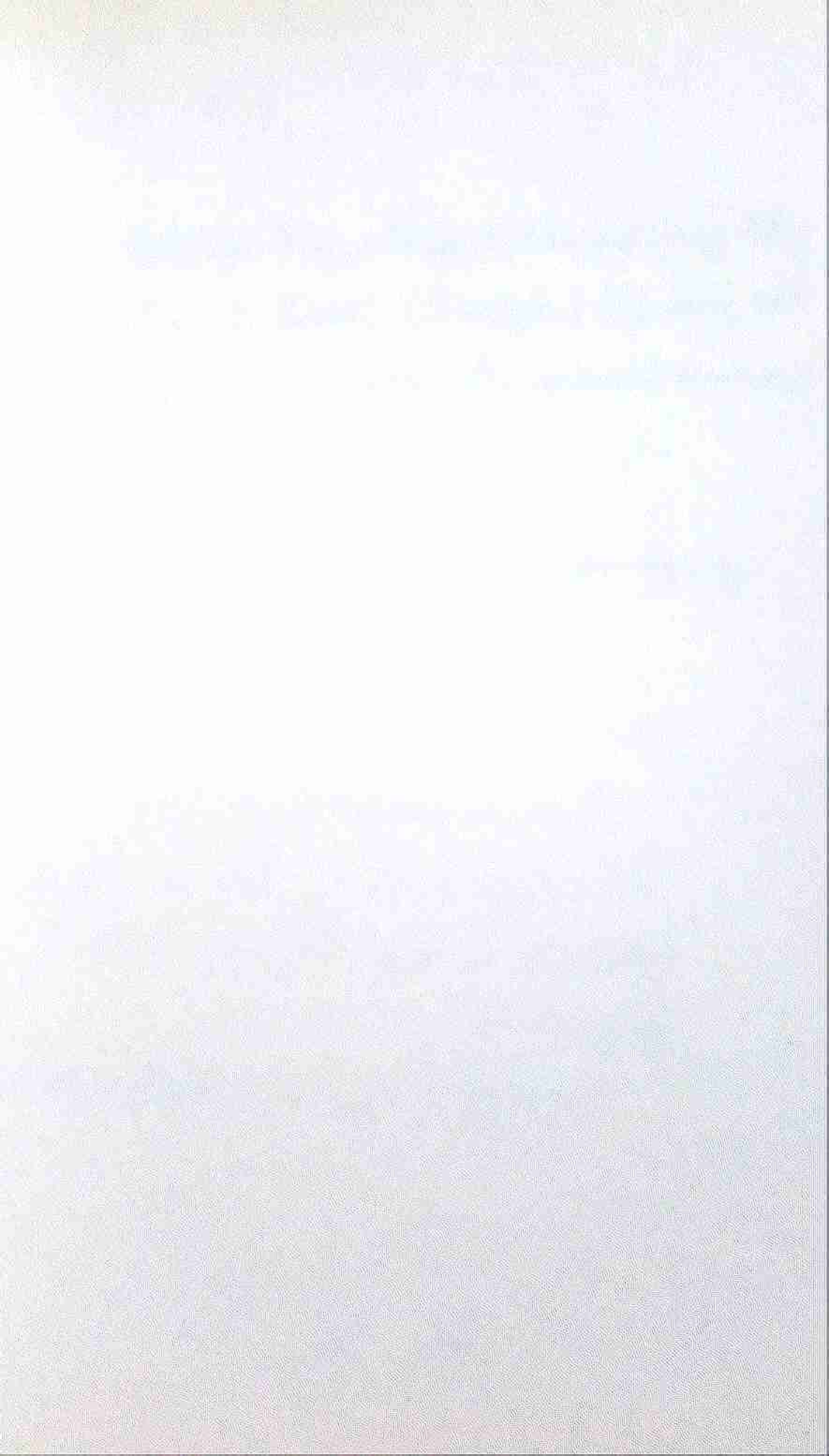
فالصافي ما برح في هذا الشعر تغلب عليه الغنائية الفردية .

على ان لهذه الغنائية الفردية روعتها ومنفعتها ايضاً . فالقوت الروحي الذي يغذي فرداً ليتقوى به على مجابهة الظلم جدير كذلك بأن يغذيَ شعباً .

فإلى جنود الحرية في مشارق الناطقين بالضاد ،

الى اولئك الذين طالتهم او تطولهم ايدي الظلم والاستعمار بالسجن والاضطهاد . إني أقدم هذا الديوان لِما يستطيعون أن يستمدوا منه من عافية وقوة .

رنيف خوري



تكسير الأصنام !

اهلاً بسجني لشهر او لأعوام
فانما يوم سجني تاج ايامي

قضيّتُ حراً ، حقوق النفس كاملة
واليوم في السجن اقضي حق اقوامي

ان يسجنوني فجرمي ياله شرفاً
أني احارب قوماً اهل إجرام

محمد كسّر الأصنام شامخة
من لي بتكسير « لورداتٍ » كأصنام

يكفيهمُ حِطّةً أن ليس يتبعهم
منا سوى كل منحط ونمام

يا دولة يتساوى في نذالته
جنديها الفدمُ في مندوبها السامي

غرفة السجن

سجنوني في غرفة قد تعرّت
فكأني سجنت وسْط القفارِ
جاعلا من ترابها لي فراشاً
وغطاء يلفّني من غبـــار
ثم زادوا على الغبار غطاءً
من نسيج مضعضع منهـــار
فاذا نمت يكتسي منه وجهي
بغريب الأصـواف والأوبار

فتراني في الصبح امضغ شعراً
وترابـاً برغم حلقيَ سَار
فكأني أكلت نصف فراشي
وكأني شربت نصف دثاري
وكأني والصوف كلل وجهي
نوعُ وحشٍ ما مر بالافكار !

طاب المرض !

ضاق بيَ السجن فقلت هل مرض
ينقذني من شر سجن قد أمضْ
لا غرو إن يهو السجين مرضا
فمن رأى الموت حلا له المرض

لقد توفقت !

سجنت وقد مرّت ثلاثون حجةً
من العمر فيها للسجون تشوقت
سعى دعبلٌ للسجن طول حياته [١]
فخاب ، وفي المسعى لسجني توفقت

---

١ - اشارة الى كلمة دعبل المشهورة. لقد مرت علي اربعون سنة وانا احمل خشبتي فلا اجد من يصلبني عليها .

قبر في الجو!

سجنوني في غرفة قد تعالت
واطلت على فسيح الفضاء
هي سجن وان تعالت، فسجني
قفص لي معلق في الهواء
قبريَ السجنَ صار، والقبر قبر
حفروه في الارض او في السماء!

وداع الحرية !

من كوة السجن ألقي
نفسي بدون توانٍ
اودّع العيش حراً
ولو لبضع ثوان

المشكلة العظمى !

قال الناظم هذه القطعة عندما اشتد عليه المرض في السجن وكان الأنكليز يعللونه كل يوم بأنهم ابرقوا الى حكومة العراق يسألونها رأيها فيه وقد مرت عليه سبعة وعشرون يوماً وهو يستغيث من الداء وهم لا يسمحون بنقله الى المستشفى ولما اشتدت عليه وطأة الداء انشأ هذه القطعة :

سجنت وقد اصبحت سلوتي

من السقم ، عدّيَ للأضلـــع

اعالج بالصبر برح السقـام

ولكنْ علاجيَ لم ينجـع

اتاني الطبيـب وولىّ سدىً

وراح الشفيـع فلم يشفع

وكم قيل مدّ مدى الأصطبار
ومهما عراكَ فلا تجزع
وكم ذا أمدّ مدى الأصطبار
فان زدت في مدّه يُقطع
ولما بكى ساجني رحمة
اجابوا التشفع للأدمع
ولكنهم صادفوا عقدة
بأمريَ تُعيي حجى الألمعي
حكومة لبنان قد راجعت
فرنسا لفكي فلم تسطع
وراحت فرنسا الى الانكليز
تراجعهم جلّ من مرجع

وقد راجع الانكليز العراقْ

وللبوم بالأمر لم يُصدع

فقلت اعجبوا ايها السامعون

ويا ايها الخلق قولوا معي

امن قوَّتي صرت ام ضعفِهم

خطيراً على دول اربع ؟؟

وعندما اطلق سراحه علم ان الافراج عنه كان بمساعي حكومة العراق في عهد معالي صالح جبر الذي كان وزيراً للداخلية ووكيلاً للخارجية كما علم ان الانكليز لم يراجعوا العراق بشأنه بتاتاً ولكن حكومة العراق هي التي ضغطت على الانكليز حتى اطلقوا سراحه فلها منه الشكر والعذر .

سَيرٌ على كل حال !

اليومَ رُخّصت بالصعود الى

السطح وعَودي للسجن تسهيلا

الحمد لله قد سعدت بأن

اسير عمقاً ان لم اسر طولا

من البحر او «البحري» ؟

سجنت وكم في السجن مثليَ من حرٍّ
يقابلنا السجــان بالنظر الشزر
وأشرفت من سجني على البحر قائلاً
مِن البحر يأتينا الخلاص او «البحري»[1]

---

(١) يشير الناظم الى صديقه الاستاذ يونس بحري الذي كان ينعش آمال القوميين العرب باذاعاته من برلين .

القبر مشحون

لقد حاول السجانون وضع الناظم في غرفة مزدحمة هي قفص حقيقي على سطح ادارة الأمن العام الأفرنسية ولكن لحسن الحظ كانت الغرفة مزدحمة بالمساجين فلم يكن له متسع فيها فاضطروا الى وضعه في غرفة اخف منها بلاء واقل سكاناً فقال :

راموا دخولي بسجن كان يخنقني
فعاقني عنه رهط فيه مسجون

كانوا يريدون لي دفناً فأنقذني
من محنة الدفن أن القبر مشحون

إما تاج وإما سجن؟!

سجنت وقبلي في العلى سجنوا أخي
وآمل في العلياء ان يسجنوا الأبنـا

اذا لم نورّث تاج مجـد وسؤدَدٍ
لأبنائنـا طـراً نورّثهم سجنا

يشير الناظم الى سجن اخيه المرحوم السيد محمد رضا الصافي في ثورة العراق الاولى سنة ١٩١٩ تلك الثورة التي انتهت بتتويج فيصل الاول ملكاً على العراق . وقد فر الناظم آنذاك مع صديقه المرحوم معالي سعد صالح =

=رئيس حزب الاحرار حتى بلغا حدود ايران فاتجه المرحوم سعد صالح الى العمارة ومنها ذهب الى الكويت ثم عاد الى العراق اما الناظم فقد ذهب الى ايران واقام في طهران مدة ثماني سنوات وبعد وصوله الى طهران علم باعتقال السلطات الانكليزية لأخيه وبعد ان قضى اخوه في السجن خمسة اشهر، وقد وضع الانكليز المشنقة امامه تهديداً له لأنه جعل بيته مركزاً لمؤامرات الثورة، اطلقوا سراحه. وقد نظم خمسة أبيات في السجن يخاطب بها احد الزعماء وقد زاره فيه. وبعد خروجه ارسل الابيات الخمسة الى اخيه ناظم هذا الديوان وطلب منه تخميسها فخمسها في حينها واعادها اليه فنشرها في مجلة «لغة العرب» للمرحوم العلامة انستانس الكرملي وها هو الاصل والتخميس

العزم واليأس

انّنا في سوى العلى ما رغبنا

نملأ الكون رهبة ان غضبنــا

ما جزعنا للسجن يوم ُغلبنــا

ان من رام مثلما قد طلبنا

لا يبالي ان سيق للسجن سوقا

نحن قوم عن العلى مــا قصرنا

حيثما دار كوكب العز درنــا

واذا جار حادث الدهر جرنا

رخصت عندنا النفوس فثرنا

نطلب العز والعلى لا لنبقى

قد ُخلقنا دون الورى احرارا

وامتلكنا التيجان والامصارا

وجعلنا لنا المعالي شعارا

ولقد سامنا العدو احتقارا

فرآنا نستسبق الموت سبقا

إنّ ذلي موتي وعزي حياتي

ما انثنت للعدو يوماً قناتي

انا فرع من دوحة المكرمات

انا من اسرة كرام أباة

لايرون الحياة في الذل أبقى

انا لما اسرت لم أبدِ ضعفــا

لا ولم ارجُ من عدويَ عطفـا

ولقـد قلت والردى بيَ حفّـا

شرَعٌ أن يكون موتيَ حتفـا

او أراني يكونُ موتيَ شنقا

سجن وانتظار

سجنوني شهراً بـأقبـح دار
جمعتْ جحفلاً من الأكـدار
ثم قالوا هذا محل انتظـــار
ليس سجناً، فالسجن في غير دار
قلت الأنتظار سجن؛ فسجني
يا لـبؤسي مضاعف بانتظار

اثاث السجن

رَمونـا كالبضائع في سجونٍ

وعافونا ولم يُبدوا اكـتراثا

رمونا في السجون بلا اثاثٍ

فأصبحنا لسجنهمِ أثاثا

الظلام المنير

أرى السجن مهما اسود أفقاً كمنجم

حوى من بديع الماس مجلى النواظر

بكى صاحبي من ليل سجنٍ، وسرني

بداجي ظلام السجن لمع الجواهر

العلاج بالكي

حسبت لطول السجن انيَ في قبرِ
فإن يخرجوني منه آمنت بالحشر

فكم وعدوني بالخروج ولم تزل
عيوني مع الموتى الى موعد النشر

من العمر لا يُحسَبْنَ ايامُ محبسي
وإن كان منها اليوم اطولَ من عمر

أموت وأحيا في يد الموت والرجا
فأخرج من قبر وادخل في قبر

يجدّد لي الآمال حارسُ محبسي

فيوقظ لي الآلام من حيث لايدري

وكم قال لي صبراً على السجن ضيّقاً

وكيف اصطبار الجالسين على الجمر

من اليأس داوى الناسُ بالكيّ داءهم

كذاك يداويني ذوو السجن بالصبر

سجين وطليق

قلل السقم من مسافة سيري
وأتى السجن لي فصارت اقلا"
غير اني وان سجنت ففكري
سائح في الوجود والنفس جذلى
واذا شئت سحت في النفس دهراً
طائفاً ثَمّ عالماً مستقلا
ان يفتني كونٌ فلي من خيالي
الف كونٍ يسمو على الكون فضلا
لا تضيق السجون بالفكر رحباً
والفضا ضيّق بمن ضاق عقلا

ان كل الاغــلال في يد حــرّ
لا تساوي في موثق الفكر غلا

فكري الحر أودع السجن جسمي
واعتزازي قد كلّف النفس ذلا

فندق السجن

سجنت وطال بي سجني وكم من
سجين جاءني يوماً وولى
كأني رب نزل صرت ألقى
من السجناء اصحاباً وأهلا
اودّع في الضحى اهلاً كراماً
وادعو في المسا ، اهلاً وسهلا
وأضحى الرفق بالسجناء دأبي
وتسليتي لهم همّاً وشغلا
فيا ضيف السجون كرمت ضيفاً
ويا نزل السجون قبحت نزلا

وكم يوم نسيت السجن فيه

فذكرني به ضيف أطلا

طلبت مسليًا منه لهمي

فلما ان رأى همي تسلى

ويوم كنت مسروراً بسجني

أرى السجان فيه أخا وخلا

أتاني مشفقاً فبكى لما بي

فأبكاني فرحت اقول مهلا

بربك لا تذكرني جروحي

فذكر الداء يُنكس من أبلا

ألفت السجن حتى صار بيتي

وصارت بالخطوب النفس جذلى

كطير عاش في الأقفاص رغداً

فلا تذكر له روضاً وظلا"

ويوم كنت في سجني وحيداً

فلم احمل من السجناء ثقلا

فقلت بحمد ربي صرت وحدي

أعيش ولو بسجني ، مستقلا

الجرم الشريف

حبست وضاق الحبس بي حين زج بي
الى غرفة ظلماءَ محكمة السد

فقلت علام الحبس ؟ لا انا سارق
ولا آثم عمداً ولا دون ما عمد

فجاء دنيٌّ باع عز بلاده
ليشتريَ النزْرَ الخسيس من الرِفد

أتى لابساً تحت السواد من الدجى
سواداً على قلبٍ ، سواداً على جلد

جرى مسرعاً ينساب نحوي مباغتاً

كصلٍّ أتى من فوهة الحجر الصلد

وراح يصب السم من فيه ناقعاً

على أُذُنٍ تستقبل السم كالشهد

مضى شارحاً ذنبي ، اذا الذنب أنني

خدمت بلادي ؛ قلت ويحك من وغد

فإنك قد ألبستني تاج سؤدد

وملّكتنى عرش الفخار بلا قصد

فيا لك من نذلٍ كريم تجود لي

بتاج العلى يزهو وقد عشتَ تستجدي

ولما رأيت الذنب خدمة موطني

حلا السجن حتى خلتُه جنة الخلد

اعلان الحرب

خسئت انكلترا، والله

أعمى مقلتيها

قبرَها في كل ارض

حفرته بيديها

سجنتني دون ذنب

غير لعني ابويها

أمنت حربي ، وسجني

يعلنُ الحرب عليها

موت المعتدي

ولقد سجنت بكف أجبنِ امة
بالرجــل تركض للمات وباليد
ما رُمت من سجني الخروج مسارعاً
إلا لأنظر كيف موتُ المعتدي

*

غرّنا بالسراب شرُّ دعـــاة
حين قالوا ، ألانكليزُ عدولُ

قلت ليت المغول ترجع يوماً
لترى ما جنته هذي المغول !

*

يصول الانكليز على ضعيف
ولا يَبدون للخصم العنيف
همُ المكروب في جسم البرايا
يفتش كي يحطّ على ضعيف

على أن لا يقال له سجن !

سجنت بقصر يشبه الخلدَ ، دونه
مناظرُ جاءت حسبما يشتهي الفن

فأكلٌ وشرب وارتخاءٌ وكل ذا
جميلٌ على ان لا يقالَ له ، سجن!

الآن طاب الشنق

حبست ولم اعلم بذنبي فاصبحت
لي َ الأرض في ضيق وضاق بي َ الأفــق

ولما علمت الذنب خدمة موطني
حلا السجن في عيني وطا ب لي َ الشنق

العقاب الضعيف

حبست فقصُ الحبس مني قوادماً
وأجنحة كانت ترف رفيفـــا
وأثقل حبسي كاهـــلي فكأنني
تحملت طوداً للسماء مُنيفا
ولما علمت الجرم خدمة موطني
رأى كاهلي حملَ الجبال خفيفـا
وقلت :عقابُ الحبس دون جريمتي
فجرمي يرى هذا العقاب طفيفا
وقد ساءني ضعف العقاب لانني
تخيلت ان الذنب كان ضعيفـا

موسى وفرعون!

قد ضاق بي السجن لما جئته وبدت
لِيَ المتاعب اشكالاً وألوانا
ومرّ عهدٌ فصار السجن لي وطناً
أرى به من وُلاة السجن اخوانا
وجاء وقت فأولَوْني مقالده
اذا السجين بأمري كان من كانا
فقلت لله دهري في تصرفه
قد طال سجنيَ حتى صرت سجانا
انا سجين وسجّان فتشهد بي
عيسى وموسى وفرعوناً وهامانا

قاعدة السجن

خلا السجن هذا اليوم من كل ساكنٍ
سوايَ، كأني منه أسُّ بناءِ

فجاء غلام السجن يبدي تعجباً
ويبغي من السجان كشفَ بلائي

وقال له كل المساجين سُرّحوا
ففيم نرى هذا رهينَ ثواء

فقال له السجان هذا الذي ترى
أبونا، فأورى شعلةً بدمائي

فقلت على رغم المروءة والعلى
اكون أبا السجّان والسجناء!

غرفة ام صندوق !

اقمت في السجن ، ويا

بئس السجونُ من مقرّ

في غرفة واطئـــة

تحب في الضيف القِصرْ

يسير فيها راكعـاً

كلُّ امرىء فيهـا خطر

فهي لأقـــزام بني

الحيوان لا بني البشر

يمشي على اربعـــة

اذا بها الطويل مرّ

كأن من يدخلها

يندسّ في جوف الحفُر

ومن بدا منها تخا

لهُ من القبر ظهر

كأنما السقف لضمّ

ارضها قد انحدر

فسقفها والارض شطران

تعالى من شطر

وسقفها غطاءُ من

نام، وتاجُ من عبر

ينام سقفها على

من نام فيها واستقر

فسقفها الكابوس فوق
الصدر او طود حجر

تُضايق الجالسَ فيها
ان تمطّى أو زفر

ان شخر الضيف بها
تخال سقفها انفجر

فهي كصندوقِ بضا
عة ، ونحن المدّخر

ضيّقة ضاق بها
الفكر كما ضاق النظر

وجارُ ضَبٍّ هذه
ام قبر جنٍ محتفر

رُمت منها ان أفرْ

وهل من القبر مفر

فهي سواء والردى

ورودُها بلا صدَر

دار انتحارٍ هذه

كم املٍ فيها انتحر

قد مرّ لي شهر بها

كان من الموت أمرّ

و « شنتتي » [1] تنظر لي

تسألني متى السفر

---

١ ـ الحقيبة .

تشكو اليّ ، مثلما
اشكو انا لها الضجر
ليس الغبار فوقها
من سفر بل من حضر
قد جلستْ في جانب
الباب جلوس المنتظر
مسجونةٌ مثلي ولا
ذنبَ سوى ذنب القدر
قد سلبوا جوازها
منها فما لها ممرّ
طولَ النهار لا نزا
ل نتبادل النظر

إخالها تبكي وان

لم ارَ دمعها انهمر

تبكي بعين حالها

ودمعها قد استتر

كادت من الغبار ان

تفقد عيناها البصر

رمتْ صوالج القدر

بنا كأننا أكر

فهل تعيد قذفنا

الى اماكنٍ أخر

تُجدد اللعب فتر

مينا ولو الى سقر

نصف مسلم !

أُحارب جنس الانكليز لأنني
وقفت على نصر الحقيقة مخذمي

احاربهم حربي لكل رذيلة
الى كل شيطانٍ ، الى كل أرقم

اخاف اذا ماتوا ، تموت ابالسٌ
فأبقى بلا لعني لهم ، نصفَ مسلم !

تحاربهم روحي و كفي ومنطقي
وان هم نَوَوْا قتلي يُحاربُهم دمي

يعشن يتامى!

وما كنت اخشى ان يفاجئني الردى

فاني ِحمام لا اخاف ِحماما

ولكنني اخشى اذا «الطبع» لم يُعل

بنيات ِ اشعاري، يعشن يتامى

ولما اشرف الناظم من شدة المرض على الخطر نقل الى مستشفى سان جورج حيث رأى من العناية به ما يذكره دائماً بالشكر وكان يبدل الشرطي المكلف بحراسته في كل ست ساعات بحارس جديد فقال يصف الرقابة عليه في المستشفى :

لا سلام ولا كلام !

ادخلني السجنُ في مصحٍّ
جميع اربابه كرام
لكنني قد مُنعت فيه
من ان يحيّينيَ الانام
يشير طرفي لمن يُحيّي
أن لا سلامٌ ولا كلام

ولا التفاتٌ ولا انعطافٌ

ولا لحاظٌ ولا ابتسام

منبوذَ قوم الهنود احكي

تقرُّبي للورى حرام

أُقيمَ في الباب لي « بُليسٌ »

كي لا يُرى منيَ انهزام

لحاظه كلها سبابٌ

ووجهُهُ كله خصام

ملازم لي بلا وداد

كأنه دائيَ العُقام

فقلت ما ذاك لي مصحٌّ

هذا هو السجن والسلام

اعلان على بابي

السجن امرض لي جسمي فصيّرني
الى مَصحّ يداوي بَرح اوصابي

نسيت سجني وبلواه فذكّرني
به على الباب شرطيٌ كبواب

اضحى يوجّه لي الانظار عابرة
كأنما هو اعلان على بابي

واصبحت نظرات الناس تشهد لي
أني سجين فتشجيني على ما بي

يرنون لي بعيون ملؤُها هلع
كأنني رب إجرام وإرهاب
وان نظرت اليهم هرولوا فزَعاً
كأنما انا ليثٌ، محبسي غابي

لا صدق ولا صديق !

فارق انكلترا طِلاها

حتى بدا وجهها الحقيقي

للهند قد أمّنتْ طريقاً

فدته بالصدق والصديق

فطارت الهند من وراها

وهي تحامي عن الطريق

فرصة موت !

دنا من الانكليز موتهمُ
فحرروا أنفساً اذلوها
لكي تقيهم حرباً مسعّرةً
أطارَ احلامَهم تلظّيها
صاحوا بكل المستعمَرين أتت
ساعة تحريركم فحيّوها
وراح يدعو لسان حالهمُ
فرصةُ موتٍ ! فلا تضيعوها

بخلاء كرام !

حرّر الانكليز مستعمراتٍ

حين باتت على شفا الاخطار

كلما فرّ من يد الطفل طيرٌ

قال اطلقته لوجه الباري

منحونا حرية حين مُدّت

نحو اعناقهم يد الجزار

بخلاءٌ ما دام فيهم حياة

كرماءٌ في حالة الاحتضار

المضايقة !

نُقلت من السجون الى مصحٍّ
كدار الخلد ذي مرأىً بهيج
ولكن أوثقوا في الباب كلباً
يضايق في الدخول وفي الخروج

حتى في الموت!

مات من التخمة جار لنا
وساقه الحرص الى حتفه
مثّل في البِطنة انكلترا
اذ مات واللحمة في كفه

المنبر الخالد !

سجنوني دونما ذنب سوى

انني سامي المنى حرٌّ عزيزْ

لايضير السجن مثلي ان يكن

[illegible] سبح في حرزٍ حريز

ولئن أُشنقْ تكن [illegible]

نبراً يعلنُ رجم الانكليز

ملحمة السجن

أو

ألواح وأشباح!

ارى في غربة الانسان سجناً
فكيف بسجن انسانٍ غريب

يزور رهينَ سجنٍ اهلُ قربى
ولكني السجين بلا قريب

أبشـّرُ عند فتح الباب نفسي
بان ستفوز بالفتح القريب[1]

١ ـ ليس هنا تكرار للقافية فان الاولى بمعنى قرابة الرحم والثانية مقابل البعيد .

فمن لي ان أرى يأساً مريحاً

يخلّصني من الأمل الكذوب

سأقتل حيّ آمالي سريعاً

وارجع منه ذا سيفٍ خضيب

فإنّ لخادع الآمال عقبى

تزيد مرارة القلب الكئيب

وان لوامع الآمال آلٌ

يزيد المحْل في القفر الجديب

سيمسكني وقار اليأس كيلا

اراني لُعبةَ الأمل اللعوب

واغضي عن سنا الآمال طرفي

وادخل ظلمة اليأس الرهيب

فان أشعَّة الآمـال تحكي

نصالاً واخزات للقلوب

تقـطب لي السما بالسحب وجهاً

كأنْ لم يكف دنياها، قطوبي

وتبسم لي البروق بها وكم لي

بسُحب النفس من بَرق خلوب

سحائبُ بارقات بالاماني

ولكن باخلات بالسكوب

تُسامرني همومي في الدياجي

ويطربني فؤادي بالوجيب

فكم في السجن من ليل غضوب

وكم في السجن من يوم عصيب

وزاد عليَّ ضيقَ السجن أني

حُرمتُ به من الخلّ الاريب

فأدعو الله تعجيــــلا بفكٍّ

لسجني، او بسجن فتىً لبيب

تمنيت الزيارة من قريـــب

وان تك زورة الأجل القريب

خدام السجن !

وخدام قساة اغبياء
ضعاف العقل اموات القلوب
اشاهد منهم الاطماع حولي
تدور تكاد تأكل لي جيوبي
كأني ساكن قبراً أغذي
به الحشرات من شتى الضروب
كأن عيونهم حشرات نهش
طلعن عليّ من خلل الثقوب

الجواسيس !

افتش لا ارى حولي حبيباً
وكم شاهدت حولي من رقيب
اجيل بهم عيون اخي وثوقٍ
فألقى منهمُ نظر المريب
هم الخلان لي لا عن وداد
هم الأعداء لي لا عن ذنوب
نفوس قدرَ بين على عيوبٍ
فما يُحسِنَّ بالأمر المعيب

ومن يُنمى الى عيب تحرّى
عيوب الناس يبحث عن نسيب
وكم قد غرني مرأى نجيبٍ
بهم فنُكبت بالمرأى النجيب
فما في برقهم الاّ عماء
ومافي سُحبهم غير القطوب
سأبعد عنهم الآمال حتى
تجيء اليّ بالغدَق السكوب

ليل السجن!

نهاري من عُبوس السجن ليلٌ
وليلي الف ليـــل من كروبي
اذا مالت ُذكاءُ الى غروبٍ
ارى نفسي تميل الى الغروب
افتش في ظلامي عن رجـاء
فأدخل في ظلام من غيوب
وابحث فيه عن حدس مصيب
فأعثر منـــه بالسهم المصيب

الا يا ليـــلُ ليتك لم تسارع

وليتك ضعت في اقصى الدروب

وليتك قد عثرت بلا مُقيلٍ

وليتك قد دعوت بلا مجيــب

وليتك اذ عثرتَ، عراك كسرٌ

برجلك لم يصادف من طبيب

تسارع في خطاك اليّ شوقاً

مسارعة المحب الى الحبيب

وتُلقي كل رحلك فوق صدري

وتجثم فـوق قلبي كالخطوب

تُجدّ السير منذ الصبح نحوي

فتهجم هجمة الأسد الغضوب

لبست من النهار الغضّ ثوباً

لتخفى عن عيون المستريب

اراك وانت في لونين تبدو

تسير من المغيب الى المغيب

كأنك حية رقطاءُ تزهو

بثوب دجىً وثوب ضحىً قشيب

تُبدّل ثوبَها في كل ليل

لتجلوَ حسنها عند الحبيب

الا يا ليل كم لك من شباب

وكم لك كلّ صبح من مشيب

تَشيب بشيبك الاكوانُ، لكن

شبابك لا يُعيد شبابَ شِيب

اقول بكل صبح سوف تفنى

متى ابصرتُ فحمك في لهيب

اذا بالفحم ينضب باشتعال

وما لسَعين فحمك من نضوب

ستبقى بعد ان تفنى شموس

الى ما شاء علام الغيوب

الا يا ليل كم لك من خطوبٍ

وكم لك في الجوانح من ندوب

اتلبَس مثلَ رهبانٍ ، مسوحاً

وقلبك قلب شيطان رهيب

فكم وسعتْ ثيابُك من افاعي

هموم مقلقات بالدبيب

وكم ضمت عقاربَ من وشاة

بألسنةٍ لوادغَ للقلوب

وكم اخفت شروراً كالضواري

محدّدة المخالب والنيوب

فلو خلعوا ثيابك عنك ابدت

الينا كل انواع العيوب

يلوح إهابُكَ الضافي ، ظلاماً

ويُخفي شكلَ حيوان عجيب

فيا لك شكل حيوان عجيب

تضمّن الف حيوان غريب

كأن الليل جبـــار عظيم

أُصيب بألف مكروب مَهيب

وما المكروب فيه سوى هوامٍ
وآسادٍ ووحش فلا وذيب
وإجرامٍ واحقادٍ تنزّى
واوهام ودمعٍ نوىً سكيب
واحزانٍ وإجرامٍ ويأس
وذكرى عاشق وكرىً سليب
وأشباحٍ وارواحٍ وجنٍ
وبومٍ مفزعات بالنعيب
أُصيبَ بتلكمُ الآفات لكن
صحيحاً عاش ذا عود صليب
ايا فيلاً ، يمدّ بكل يوم
على الاكوان خرطومَ الغروب

فيشرب كل نور ثم يُلقــي

مُجاجاً للدُجنّة والخطــوب

أجبّارَ الظلام لأنت عبدٌ

وان أُوتيت سلطان الشعوب

أرى حُر النهار يخاف من أن

يراك لذاك يسرع بالهروب

تنام على سواعدك البرايا

فترضعهم بمسموم الحليب

وتغمرهم بأحلامٍ كذاب

وتسقيهم من الرنِق المشوب

تهدهدهم بصمتك وهو يحكي

زئيراً صكّ اسماعَ القلوب

وتُطبق جفنهمْ رعباً ليغفوا

متى قابلت بالوجه الغضوب

كأن الأفق شدقك، رحت منه

تُكشر عن نجوم كالنيوب

مُربّي العالمين لأنت باق

وكم خنقتْ اكفك من ربيب

ألا يا ليل يحسبك ليلُ سجني

وحسبك عن كروبك لي، كروبي

كرهتُ القبر بعد الموت سجناً

وعفت اللبث في الوطن الخصيب

فما ارضى ولو في الخلد حبساً

ولو ما بين ازهار وطيب

أيُحبس من يجرّم أيَّ حبس
وكل منـــاه تحرير الشعوب
أيحبس شاعر حــــر رقيقٌ
تضايقه النسائم بالهبوب
يرى من جسمه سجناً عليـه
يكاد يهمّ منه بالوثوب
رأيت السجن مجتمَع الرزايا
ولا كالسجن للرجل الأديب
وكيف يُطيق ضيق السجن حرٌ
يضيق به فضا الكون الرحيب

رهين المحبسين

رهينُ المحبسين ضنىً وفقرٍ
وأحبس: جلّ ذلك من نصيب
لئن أُسجنْ فما الأقفاص الا
لليث الغاب أو للعندليب
ألا يا بلبلاً سجنوك ظلماً
فنحت لفرقة الغصن الرطيب
كلانا من تألمـــه يغني
فتنعش صاحب القلب الطروب

لقد أصغى الخليُّ إلى غنانا
ولم يسمع به نغم النحيب
ولو أصغى لنغمتنا مليّاً
لذاب بذلك النغم المذيب

ويا ليت الشرى سجنوك مثلي
لدُن خافوا وثوبَك او وثوبي
لئن كشّرت للهيجاء ناباً
فأقلامي تكشّر للحروب
كلانا صاحبا صمتٍ مَهيب
كلانا صاحبا وجهٍ رَعوب
أدبُّ على الثرى ضعفاً، ولكن
أرى الجبناء يقلقهم دبيبي

تُراعُ حلومهم لصدى عظامٍ
ضئيلاتٍ تَقضقضُ في جنوبي
أعبّس للضنى فيخيف قوماً
عبوسي ثم يُشجبهم شحوبي
فكيف بهم اذا سمعوا زئيري
وكيف اذا اكشر عن نيوبي

وهذه أبيات قالها عند خروجه من السجن:

إفراج كالسجن

كنت أخشى في السجن إن تأتِ بشرى
بفكاكي، أُصبْ لها بالجنون

اطلقوني من بعد ما اعتدت سجني
فكأني مجدداً سجنوني

العقل كالجنون

شكرت ولاة سجن اطلقوني
وقلت همُ ذوو خيرٍ ودين
وعدت اصبُّ فوق العقل غيظي
لأن العقل أصبح كالجنون

أإطلاق السجين يُعدُّ خيراً
ويُنسى شر إمساك السجين

الحرية إدام

من بعد سجنِ اربعين يوماً

كأنهن سجن الف عـــام

اصبحت إن ا كلت خبزي حافاً

جعلت من حريتي ، إدامي

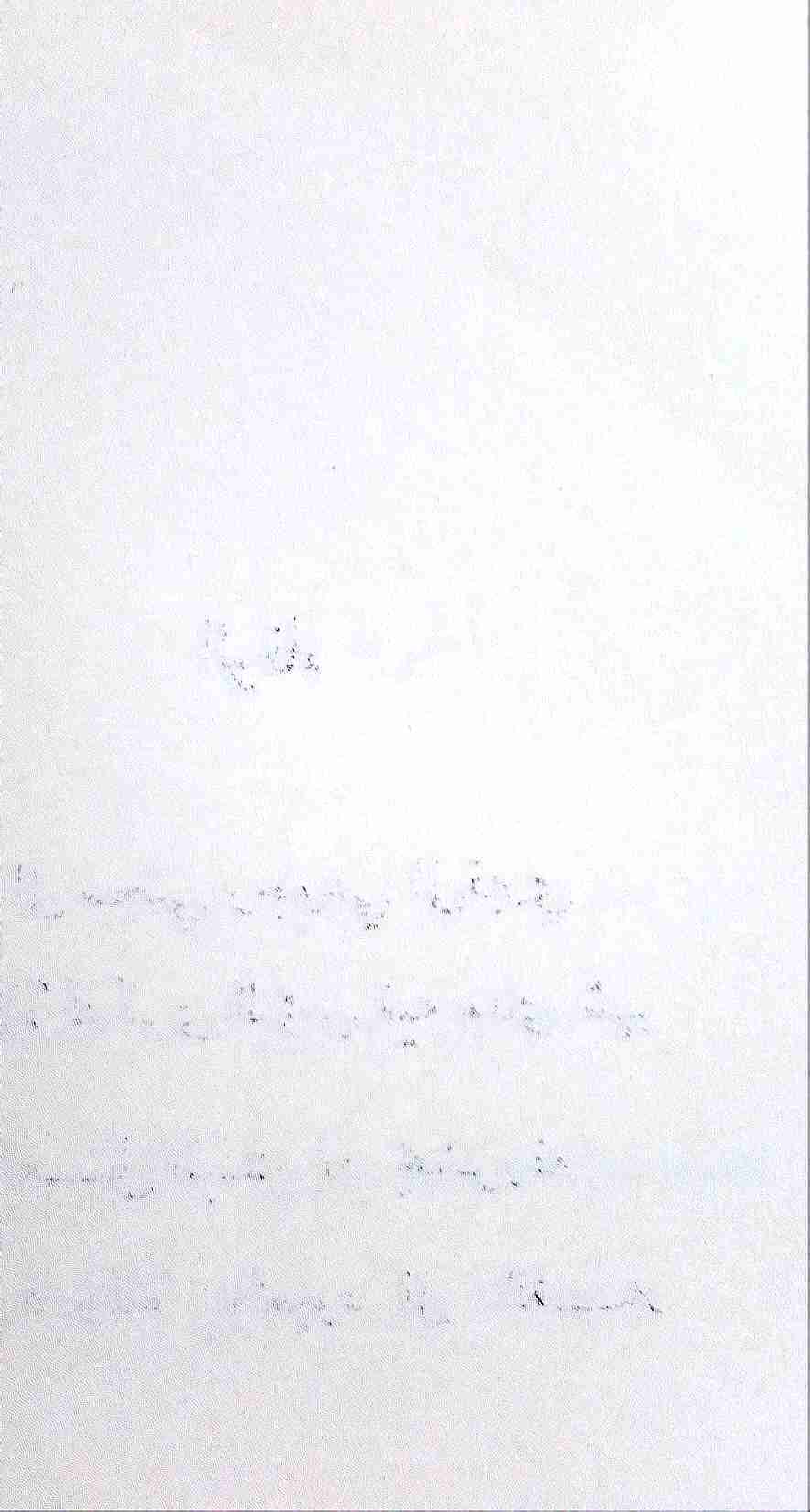
الوفاء

رجعت الى سجني رجوعي الى قبري

وفاءً لذكرى البؤس فيه مدى شهر

وقلت لعل الميت اذ يحشرونه

يعود وفاءً بالعهود الى القبر



حصاد السجن

... انه اغزر مجموعة من شعر السجون لشاعر واحد في الادب العربي قديمه وحديثه ، بل أنفس مجموعة شعرية في هذا الموضوع سعة معنى ، وغرابة خواطر وصور . تشارك شعراء العرب في أفضل معانيهم في هذا الباب ثم تبذهم على الجملة سعة واغراباً وعمقاً .

وانك لواجد في هذا الديوان قبساً من قوة النفس ووميضاً من تحدي الاضطهاد وعزفاً حمساً حاراً في تمجيد التضحية على مذبح الحرية .

ولن تجد ذلك كله مجتمعاً لك عند شاعر من شعراء السجون في ادبنا قديمه وحديثه كما اجتمع في ديوان احمد الصافي النجفي ...

رئيف خوري

يطلب من مكتبة المعارف ص.ب: ١٧٦١ — بيروت